رسائل نابليون فى مصر*

الأستاذ/ صلاح منتصر

أشكر المجمع العلمى المصرى على العمل الثقافى والعسكرى والفكرى العظيم الذى قدمه للمكتبة العربية من خلال ترجمة الأوامر العسكرية اليومية لنابليون بونابرت فى مصر وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور أحمد يوسف الأستاذ بالجامعات الفرنسية وعضو المجمع العلمى المصرى الذى تولى ترجمة الرسائل، والأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبى الأمين العام للمجمع العلمى المصرى الذى قام بمراجعتها، والراحل العظيم الأستاذ الدكتور إبراهيم بدران رئيس المجمع الذى سجل مقدمة العمل ألذى أصدره المجمع فى جزئين ضخمين يقعان فى ١١٤٤ صفحة الجزء الأول منهما ٥٨٠ صفحة. ولعل ما يؤكد نجاح هذا العمل رد الفعل الذى حدث أثناء نشرى عنه فى صحيفة المصرى اليوم وإهتمام الكثير من القراء وسؤالهم عن كيفية الحصول على نسخة من هذه الرسائل مما شجعنى على مواصلة الحديث عنها ١٨ أسبوعا.

---

* محاضرة للأستاذ صلاح منتصر الكاتب الصحفى المعروف ألقيت فى الموسم الثقافى للمجمع العلمى المصرى (الأثنين ٢٧ فبراير ٢٠١٧).

ما أن تفضل الدكتور الشرنوبى وأهدانى المجلدين وقلبت صفحاتهما حتى وجدت نفسى منجذبا إلى قراءة العمل الذى إكتشفت على الفور أهميته وأهمية محتوى الرسائل من قائد له مكانته العظيمة فى تاريخ القواد بالإضافة إلى أن هذه الرسائل كانت تضم عددا كبيرا لم يسبق نشره وأفرجت عنها وزارة الدفاع الفرنسية قبل نحو عشر سنوات بحيث أصبح من يقرأها يجد نفسه وكأنه يتابع مسلسل رواية أو سيناريو للسنوات الثلاث التى قضاها نابليون فى مصر.

ولعلى أضيف أنه كان لدى إهتمام مسبق بنابليون وغزوته لمصر لسبب مهنى وهو قدومه ومعه المطبعة التى بدأت تاريخ الصحافة فى مصر، ولسبب آخر تاريخى وهو علاقة نابليون بتغيير تاريخ مصر وأنه لولا حملته لما جاء محمد على إلى مصر ضمن الذين إستنجد بهم الباب العالى فى الولايات التابعة له ليساعدونه فى محاربة نابليون، لكن من المفارقات أنه بدلا من أن يحارب محمد على نابليون فإنه حكم مصر وغير تاريخها.

ثم أنتقل من هذه المقدمة التى أعتذر عن إطالتها إلى المجلدين اللذان تضمنا ٢٤٨٥ رسالة كتبها نابليون خلال ٢٣ شهرا من ٥ يناير ١٧٩٨ إلى ١٥ نوفمبر ١٧٩٩. وبالطبع فإن الحديث عن هذه الرسائل لابد أن يختص بعضها ويترك كثيرا منها له بالتأكيد أهميته، وهو مايعنى أن حديثى عن هذه الرسائل ليس حديثا تفصيليا عن كل رسالة وإنما هى أضواء كاشفة على بعضها تاركا لمن يقرأ الرسائل نفسها متعة رؤيتها وتفسيرها بالطريقة التى يراها. وأبدأ بالرد من خلال الرسائل على سؤال: لماذا جاء نابليون إلى مصر؟

من المعروف أن نجم نابليون لمع كقائد عسكرى بعد النجاح الضخم الذى حققه فى "حروب إيطاليا" التى مكنته وهو فى الثامنة والعشرين من عمره أن يخضع كل إيطاليا لسيطرة فرنسا ويهدد النمسا مما إضطر أوروبا إلى طلب الصلح مع فرنسا التى أصبح لها المقام العالى بفضل إنتصارات نابليون والذى أصبح حلمه بعد هذه الإنتصارات كما جاء فى رسالته رقم ٥٣٢٢ بتاريخ ٥ مارس ١٧٩٨ كسر شوكة

بريطانيا البحرية من خلال حملة تهدد تجارة بريطانيا فى الهند . وهكذا ودون الدخول فى تفاصيل كثيرة فإن نابليون إتجه إلى مصر ليتخذها قاعدة لقواته ينطلق منها لتهديد مصالح الإنجليز فى الهند، وبالتالى يمكن القول أنه لولا بريطانيا مافكر نابليون فى مصر. ويؤكد ذلك الإسم الذى أعطاه نابليون للحملة وهو: "الجيش الموجه إلى إنجلترا" بينما أطلقت عليه الحكومة فى فرنسا إسم "جيش الشرق".

والواضح من رسالة نابليون إلى حكومته بتاريخ ٥ مارس أنها تعكس تصورا عاش فيه نابليون فترة جعلته يضع على البعد صورة تفصيلية للجيش الذى يريد قيادته وقد كتب التفاصيل فى مساحة إستغرقت ثلاث صفحات كاملة من المجلد الأول بدأها بقوله : للإستيلاء على مصر ومالطة سنحتاج من ٢٠ إلى ٢٥ ألف جندى مشاه ومن ألفين إلى خمسة آلاف فارس دون جواد، ومن الممكن إستنفار وإبحار هذه القوات إنطلاقا من إيطاليا وفرنسا على النحو التالى : ويلى ذلك خريطة تفصيلية بالمدن التى تنطلق منها القوات وأسماء الفرق وعددهم وأسماء قادتهم مما يكشف بصورة واضحة عن قائد عسكرى بالغ التنظيم والدقة والجدية، والتدخل فى جميع التفاصيل، يومعرفة أسماء جميع القادة بل والضباط وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة فى جميع رسائله.

تحول الحلم إلى حقيقة وأقرت حكومة باريس إعداد "جيش الشرق" بالطريقة التى خططها نابليون وقد أقلعت الحملة من ميناء طولون فى فرنسا يوم ١٠ مايو ١٧٩٨ ووصلت إلى جزيرة مالطة يوم ٩ يونيو بعد شهر، وهى الجزيرة التى حددها نابليون لتكون قاعدة تجمع وإنطلاق للحملة إلى الإسكندرية. وبعد عشرة أيام تحركت الحملة من مالطة وتضم ٣٦ ألف مقاتل حملتهم نحو ٣٠٠ سفينة وتولت حراستها ٥٥ سفينة حربية، فوصلت الإسكندرية يوم أول يوليو أى بعد ٥١ يوما.

الإتفاق مع الأعراب

ومن الإسكندرية إلى أن وصل القاهرة تضمنت رسائل نابليون أوامره المختلفة إلى القادة العسكريين الذين صحبهم فى حملته ويمثلون أشهر الأسماء فى ذلك

الوقت، كما تتضمن تقارير نابليون إلى حكومته عن مختلف المعارك التى واجهها ويحكى عن الذين واجهوه وعطلوا مسيرته فى مصر وهم أولا المماليك الذين إعتبروا أنفسهم جيش الدفاع عن مصر، والأعراب الذين كانوا يهاجمون مؤخرة جيشه، ولذلك إهتم نابليون كما تكشف رسائله عن التحالف معهم بعد أن وضع المماليك على رأس أعدائه. ويقول نابليون أنه بالفعل حضر إليه ١٣ من أهم زعماء هؤلاء الأعراب "وجلست وسطهم وتبادلنا الحديث مطولا"، وبعد أن إتفقنا على بنود الإتفاق تناولنا الطعام الذى أقسمنا عليه أن يذهب إلى الجحيم من يخالف هذا الإتفاق من طرفنا أو طرفهم.

أما الإتفاق يقول نابليون فهو من طرفهم التوقف عن التحرش بمؤخرة جيشنا ومدنا بكل أنواع المعونة التى فى إمكانهم، وأن يمدونى بالعدد اللازم من الرجال الذى سأطلبه لمقاتلة المماليك. وهو مايعنى جعل المماليك العدو المشترك للفرنسيين والأعراب، أما المقابل يقول الإتفاق : عندما أصبح سيدا لمصر أرد إليهم الأراضى التى كانت فى حوزتهم والتى إستولى عليها المماليك، وأن تقام الصلاة فى المساجد كالعادة، وأن يكون عندى فى البيت كثير من الأئمة والقضاة والأشراف والمفتيين وكل الزعماء الدينيين.

وهذا يعنى نجاح نابليون فى الصفقة التى عقدها مع الأعراب وأساسها عداء يتوقفوا عنه ضد الفرنسيين، ووعد من نابليون عندما يصبح سيد البلاد وينتصر على المماليك الذين جعلهم نابليون عدوه وأعداء الأعراب.

ذهب المصريين إغتصبه المماليك

ولا تقلل رسائل نابليون من المماليك فهو يصفهم خاصة الذين واجههم على أبواب القاهرة بالشجاعة، فقد كانوا يحاربون دفاعا عن ثرواتهم. ويقول نابليون أنه ما وقع جندى منهم إلا وجدنا معه ٣٠٠ أو ٥٠٠ عملة ذهبية وهو مبلغ ضخم جدا

بقياس ذلك الوقت ويعنى أن المماليك حصلوا من المصريين على هذه المبالغ التى حملوها معهم وهم فى الحرب إذا ما إقتضت الظروف هربهم. وقد تمكن الفرنسيون من القضاء عليهم فى مجزرة كبيرة. وأثناء الليل بعد ذلك يقول نابليون خرج العامة من المصريين وأحرقوا بيوت المماليك وإرتكبوا فظائع كبرى فى دلالة على ما كان يحمله المصريون من كراهية للمماليك بسبب المعاملة القاسية التى كان المصريون يلقونها من المماليك، ولكن نابليون يصف مارآه بقوله : إن القاهرة التى يسكنها ٣٠٠ ألف نسمة يسكنها أيضا أقبح الرعاع فى العالم.

نابليون يصف مصر

لكن نابليون بعد إن واجه المماليك فى معارك الرحمانية وشبرا خيت والمعركة الحاسمة "الأهرامات" وكلها هزم فيها المماليك فإنه بعد أن إستقر به الأمر فى القاهرة والتعرف أكثر على المصريين وحياتهم فإنه بتاريخ ٢٤ يوليو ١٧٩٨ كتب إلى حكومته قائلا : من الصعب أن ترى أرضا بهذه الخصوبة وشعبا بهذا الفقر وهذا الجهل وهذا الحمق. إنهم يفضلون زرارا فى سترة أحد جنودنا على عملة تبلغ ٦ فرنكات. أما فى القرى فلا يعرفون إختراعا إسمه المقص. ومنازلهم مصنوعة من الطين. وكل الأساس الذى لديهم مرتبة من القش وثلاثة أو أربعة أوانى من الفخار. إنهم يستهكون ويأكلون بشكل عام أقل القليل جدا ولا يعرفون إستخدام الطواحين ولذلك لم نكن نأكل سوى الخضار واللحوم أما القليل من الدقيق الذى يطحنونه فكانوا يستخدمون فيه الطحن بالحجر وفى القرى الكبيرة توجد مثل هذه الطواحين التى تجرها الثيران.

ويمضى نابليون فى تقريره لحكومته عن مصر قائلا : ليس فى هذه البلاد إلا القليل جدا من العملة ولكن هناك الكثير من القمح والأرز والخضروات والماشية . إن فرنسا لن تجد مستعمرة فى متناول أيديها إلى هذا الحد من الثراء ولا أرضا بهذا الغنى. إن الطقس فى مصر صحى جدا لأن الليل بارد ، فبرغم أننا مشينا ١٥ يوما

وعانينا من كل أنواع التعب والحرمان من النبيذ ومن أى شئ يمكن أن يخفف عنا عناء التعب فإنه لم يسقط مريضا واحدا، لأن الجنود وجدوا الماء فى أفضل منابعه فى البطيخ وأنواع الشمام الموجودة بوفرة هائلة.

لم تترك بريطانيا الفرنسيين ينعمون بإحتلالهم مصر بل طاردوهم وحاصروا بقيادة الأميرال نيلسون أسطول نابليون فى أبوقير أول أغسطس ١٧٩٨ وكبدوه خسارة كبيرة تم فيها تدمير عدد كبير من وحدات الأسطول الفرنسى وقتل قائده "الأميرال برويس" ونحو أربعة آلاف من البحارة الفرنسيين. وقد واجه نابليون بثبات هذه الخسارة وإن كان كما تكشف رسائله فإنه ثار ثورة عنيفة على جنرالاته الذين حملهم الهزيمة التى جرت وأنهم هم الذين هزموا وليس الأسطول الفرنسى. لكنه فى الوقت نفسه يكتب رسالة بالغة الإنسانية إلى أرملة قائد الأسطول "برويس" الذى أصابته قنبلة فصلت فخذه الأيسر وقضت على حياته يقول فيها : إننى أشعر بألمك. إن اللحظة التى تفصلنا عن أحبائنا لحظة قاسية تجعلنا نشعر بخلجات الإحتضار التى كان يعانيها الأميرال وأن لا شئ يستحق الحياة وأنه من الأفضل أن نموت. ولكن وبعد هذا التفكير ننزع إلى ضم أطفالنا إلى صدورنا، ونعطى الدموع والمشاعر الرقيقة روحا جديدة للطبيعة وندرك أننا نعيش من أجل أطفالنا. نعم ياسيدتى إنك تبكين معهم وسوف تقومين بتربيتهم وتثقيف شبابهم، وعندما تحدثيهم عن أبيهم وعن الألم الذى عانيته والخسارة التى عانوا منها وعانت منها الجمهورية. وبعد أن تعيدين إرتباط روحك بالعالم وبالحب الأبوى وحب الأمومة سوف تقدرين حق التقدير الصداقة والإهتمام الذى أشعر به تجاه زوجة صديقى. كونى على ثقة بأن هناك رجال عددهم قليل يستحقون الأمل الناتج عن آلام الروح. نابليون

وقد إستوقفتنى هذه الرسالة لأنها تعكس لمن يقرأ رسائل نابليون الأخرى أنه يعظم كثيرا إستشهاد القائد فى الوقت الذى يحتقر وبشدة محاولة غيره الإفلات بحياته مما يضطره إلى الإستسلام لعدوه.

لم تقضى هزيمة أبو قير على خطط نابليون فى إحتلال سوريا وجعلها جزءا من دولة عزم على إنشائها على ضفاف النيل وشواطئ المتوسط ثم بعد ذلك يواصل زحفه على الهند، ولكن أحلام نابليون تتحطم أمام عكا، ويضطر للعودة إلى مصر ليقود معركة ضد الآستانة التى تصورت أنها يمكن تكرار مافعلته بريطانيا فى أبو قير فيرسلون حملة لهذا الغرض يواجهها نابليون بنفسه وينجح فى القضاء عليها.

وبعد ذلك تصل نابليون الأخبار بتدهور الأوضاع فى فرنسا نتيجة هزائمها التى واجهتها فى أوروبا خلال وجود نابليون فى مصر، فيجد نابليون أن وطنه أهم ويقرر يوم ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ العودة إلى بلاده تاركا مصر تحت قيادة الجنرال كليبر.

وكما تلاحظون فقد طال بى الحديث رغم أننى لم أشر إلا إلى عدد محدود من رسائل نابليون، ولهذا أخصص الجزء التالى لإبداء عدد من الملاحظات والمعانى على مضمون هذه الرسائل.

أولاً : كان واضحا منذ بداية الحملة عقلية نابليون الثقافية والعلمية والفكرية فى إصطحابه العلماء والمفكرين والمهندسين الذين حرص على إصطحابهم معه ووصلوا إلى نحو ١٥٠ عالما فى مختلف التخصصات وقرار إنشائه هذا المجمع العلمى الذى يضمنا، وإصطحاب أول مطبعة تعرفها مصر، مما أعطى الحملة التى لم يتجاوز عمرها ثلاث سنوات وجها ثقافيا وعلميا ألقى بظلاله على الحياة المصرية، إلا أنه فى النهاية تبقى الحملة فى نظر المصريين إستعمارا وإحتلالا لم يرتاحوا إليه وقاوموه ودخلوا مع الفرنسيين فى إشتباكات دموية عنيفة. مع ذلك فعند التقويم نستطيع القول أن إحتلال نابليون الفرنسى كان له وجها ثقافيا، بينما إحتلال فريزر البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ كان إحتلالا إستعماريا بغرض فائدة جانب واحد هو بريطانيا.

ثانياً : كان تعداد مصر فى وقت الحملة محدودا وكان سكان القاهرة لا يتجاوزون ٣٠٠ ألف وقد أدرك نابليون تصنيف القوى التى يواجهها وهم : مماليك، وأعراب،

وسكان، وقد حاول شراء الأعراب بالوعود، وإرضاء السكان بإحترام عقيدتهم الإسلامية وإن كان قد تجاوز حدود ذلك وإقتحم بخيوله الجامع الأزهر، أما المماليك فكانوا العدو الواضح الذى لا يعرف مهادنته. وقد إعترف نابليون بقوة المماليك الذين دخل معهم ثلاث معارك قوية قبل أن يتمكن من دخول القاهرة.

ثالثاً : رغم الوقت الطويل الذى كانت تستغرقه الرسائل بين فرنسا ومصر فقد كان نابليون ينتظر بشوق وصول الرسائل التى تحمل معها الصحف الصادرة فى فرنسا رغم أنه يكون قد مضى عليها أكثر من شهر، ومع ذلك كان نابليون يتشوق إليها ويلح على إرسالها مما يعكس طبيعته الإعلامية وتشوقه إليها رغم قدمها، مما يؤكد شخصية نابليون فى معرفة تفاصيل أخبار الوطن الذى كان يحمل فى ضميره أنه المنقذ له.

رابعاً : تكشف الرسائل الشخصية التى كتبها نابليون تتبعه لتصرفات ليس فقط القادة أو الجنرالات وإنما أيضا الجنود الصغار الذين تتضمن رسائل كثيرة طلب مكافأتهم أو معاقبتهم. وتكشف الرسائل ثورته العارمة على الجنرالات بعد تمكن الإنجليز من تدمير جزء كبير من الأسطول الفرنسى فى أبوقير فيكتب إلى الجنرال كليبر غاضبا : إن ماحدث فى موقعة أبوقير هو هزيمة للجنرالات وليس للأسطول، ويكتب إلى لوروا المدير العام الإدارى للبحرية قائلا : من السخرية أيها المدير المواطن أن تتسلى وتدفع مصروفات الولائم بينما نحن عاجزون عن دفع رواتب البحارة وثمن المعدات. أرجو أن تلتزم إلتزاما صارما بالأمر الذى أصدرته لك بإستخدام ثلاثة أرباع الأموال التى أرسلتها إليك فى الإنفاق على المعدات والربع الأخير فى الإنفاق على الموظفين.

وفى رسالة أخرى إلى المدير الإدارى لجيش الشرق يقول نابليون : أبلغنى الجنرال ديزيه أنه فى تعيينات البسكويت وعددها ٦٠٠٠ وجد أنها تنقص الثلث فأخبرنى من هو المسئول المكلف بهذا التموين وما سوف تقرره بشأن ال ٢٠٠٠ تعيين الناقصة لأن هذا يعنى أن بعضهم ذهب بعيدا فى الندالة والوقاحة.

وفى رسالة إلى رئيس أركان جيش الشرق فى مارس ١٧٩٩ يقول له نابليون : قم أيها الجنرال المواطن بإحضار الضابط قائد جنود المدفعية وأطلب منه أسماء العشرين ضابطا المتخصصين فى المدفعية وأودعهم فى القرية التى بها الكتيبة التى سترحل إلى القاهرة، وعند وصولهم القاهرة يجب وضعهم فورا قى سجن القلعة.

خامساً : تكشف رسائل نابليون أنه لم يكن متفرغا لمصر بل كان مشغولا بوطنه فرنسا متابعا لما يحدث فيه ويبدو أن حلمه بالإمبراطورية قد تحطم أمام فشله فى غزو عكا، فعاد مشغولا بالوطن وترك مصر عائدا لبلاده مفسرا لجنوده السبب فى رسالة وجهها إليهم يقول فيها (رسالة يوم ٢٢ أغسطس ١٧٩٩) أيها الجنود إن الأخبار الواردة من أوروبا تحتم على السفر إلى فرنسا وقد تركت قيادة الجيش للجنرال كليبر وسيتلقى الجيش قريبا أخبارى ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك. وفى نفس اليوم ٢٢ أغسطس غادر نابليون الميناء الشرقية فوصل خليج فريجوس جنوب فرنسا يوم ٩ أكتوبر بعد ٥٠ يوما ليبدأ رحلته الجديدة فى بلاده إلى الحكم.

أحسب أنها رحلة طالت مع قائد من نوعية خاصة فى القسوة والإنسانية، فى الشدة ومكافأة المجد، فى التنظيم والإنضباط، ولهذا أرجو قبول معذرتى على الإطالة، وفى الوقت نفسه على عدم إعطاء الموضوع حقه، فنحن أمام صفحات هامة من تاريخ وطن وتاريخ قائد عسكرى حفر إسمه فى التاريخ قبل أن يصل الثلاثين. ولعل الدكتور الشرنوبى يتمكن من توفير النسخ اللازمة من هذه الرسائل ولو فى طبعة شعبية ليتاح لأكبر عدد مطالعتها.

أشكركم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته